مبادئ إنسانيه

من هجـــرة الرسول

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
المستشار للشئون الدينية والثقافية لوزارة الأوقاف

أذن الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة ، وذلك بعد أن ظل بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو جاهداً إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، وإلى نبذ ما كان عليه العرب من عبادة الأوثان والأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنهم شيئاً .

ولكنه ، مع مابذل من جهد ، ومع عرضه نفسه على القبائل ، ومع ما جاء به من قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومع عجز البلغاء والفصحاء عن الإتيان بشىء من مثله ؛ نقول إنه مع ذلك كله لم يجد إلا الصد والإعراض ، وناله هو وأصحابه شر كثير وبلاء كبير من قومه .

ومن البديهى أنه كان فى قدرة الله الذى لا يغلب ، وإرادته التى لا ترد ، أن ينصر دينه الذى ارتضاه للناس جميعاً ، ورسوله الذى جعله حامل خاتمة رسالاته للبشرية ، وأهله الذين آمنوا به من أول الأمر ، وأن يعزهم ويعلى كلمتهم وهم فى وطنهم الحبيب إلى قلوبهم ونفوسهم ؛ هذا الوطن الذى اضطروا للخروج منه فراراً بعقيدتهم ودينهم ، مضحين فى سبيل ذلك بالمال والولد وكل عزيز عليهم أثير لديهم .

كان ذلك فى قدرة الله الذى لا يعجزه شىء فى السموات والأرض ، ولكنه

— وهو العليم الحكيم — أراد لرسوله والمؤمنين معه هـذه الهجرة من مكة إلى المدينة ، وأن يستبدلوا بوطن حبيب وطناً آخر صار مهد عزهم وسيادتهم ومجدهم وسعادتهم .

وكان هذا لنتخذ من هذه الهجرة المباركة مبادىء لها أثرها الخطير علينا ، أفراداً وجماعات فى كل زمان ، وهذه المبادىء الإنسانية هى التى نعرض لبعضها فى هذه الكلمة الموجزة ، لعل فى ذلك عبرة وذكرى لقوم يعلمون .

كان همّ الرسول صلى الله عليه وسلم أن تنتشر الدعوة إلى الاسلام بين الناس جميعاً ، وأن يجد القلوب متفتحة لرسالته ، وأن يجد من أولى القوة والمنعة ما يهيىء لهذا الدين الظهور وعلو الكلمة . ولكنه بعد أن أقام بمكة ثلاثة عشر عاما تلفت حوله فماذا رأى ؟ .

وجد الدعوة وقفت أو كادت بسبب ما قام حولها من عقبات وسدود من كل ناحية ، ورأى أصحابه القلائل ما بين مفتون فى دينه ونفسه وأهله ، أو شريداً بعيداً عن بلده الحبيب إلى نفسه . أو مقيماً على أحر من الجمر يتوقع الفتنة فى كل آن .

فكان لابد من التفكير فى الأمر ، ومن الانتقال بالدعوة للدين الجديد إلى بلد آخر يجد فيه ملاذا لأصحابه ، وأنصارا لدعوته ، وعونا على نشر رسالته التى شرفه الله بها .

ومع هذا ، فقد أحس أن المقام بمكة لم يعد من الحزم ولا من الرأى الرشيد والشاعر يقول : وإذا نبا بك منزل فتحول ، كما يقول الآخر :

وإن كمال الرأى والحزم لامرىء إذا بلغته الشمس أن يتحولا

وبجانب هذا وذاك ، فقد أرى الله رسوله دار هجرته فى منامه ، وأنها أرض ذات نخيل ؛ ولهذا استبشر بهذه الرؤيا وبشر بها أصحابه ، حتى إذا أذن الله بها ترك مكة إلى المدينة فعلا ، وجعلها موطن الاسلام وعاصمة الدولة الاسلامية .

وحادث الهجرة نفسه ، وما تلاه من إقامة المجتمع الاسلامى بالمدينة على أسس خاصة لم يكن يعرفها العرب — بل الإنسانية عامة — من قبل ، يمدنا

بكثير من المبادىء الانسانية النبيلة الرائعة ، هذه المبادىء التى نشير إلى بعضها الآن .

١ — انه صلى الله عليه وسلم قد أرانا بهجرته ، مع ما كان فيها وفى سبيلها من مشاق وآلام ، أنه لا يقيم على ضيم يراد به إلا الذليل ، وأن الهجرة فى سبيل الدين والحق فى طريق النصر ، وأن الأخذ بالأسباب مع كمال الثقة بالله القوى العزيز هو أكبر طرق النجاح والفوز وأقربها ، وأن من يرضى بالهوان لنفسه ودينه يظلم نفسه ويبوء بسخط الله تعالى .

وفى هذا جاء فى القرآن الكريم : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ! فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا » .

٢ — ونجد بعد هذا مبدأ وجوب التضحية بالمال والنفس فى هذه السبيل النبيلة ، سبيل الدين والانتصار له ؛ فهذا سيدنا على رضى الله عنه يقبل راضياً مسرورا أن يبيت فى فراش الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة ، وهو يعلم أنه سيكون قاب قوسين أو أدنى من الموت ، بل أنه سيقابل الموت عيانا ؛ ولكن ما قيمة حياته وهو يوقن أنه بهذا الصنيع يكون سبباً لفشل مؤامرة قريش الظالمة ولنجاة الرسول عليه الصلاة والسلام ! .

وهذا سيدنا الصديق أبو بكر ، رضى الله عنه وأرضاه ، يطير فرحاً بصحبة الرسول المصطفى ، ويعد كل ما يلزم للهجرة وبلوغ دار الأمن ، ويخرج معه بماله كله ، وكان خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ؛ وما عليه أن يضحى بذلك والله لن يضيعه أبدا ، وإن ظن أبوه — كما يذكر هشام فى سيرته — أنه جمع أهله بماله مع نفسه ! .

٣ — وهناك بعد ذلك كله ما قدره الرسول من « الأخوة الدينية » بين المسلمين جميعاً ، وهو ما لم يكن المجتمع العربى ، بل لم تكن الانسانية عامة ، يعرفه قبل الاسلام ؛ فقد كان العرب يترابطون فيما بينهم برابطة القبيلة والدم ، ولكن الرسول آخى بين المهاجرين والأنصار بعد أن صاروا بالمدينة ، فأصبح المسلم أخا للمسلم فى كل مكان وزمان ، ولذلك كان الأنصارى يشاطر أخاه المهاجر داره وماله ، وهو بهذا الإيثار مطمئن القلب فرح النفس قرير العين .

وبهذا ضرب الأنصار للبشرية كلها مثلا رائعاً فى الأخوة والإيثار ، وهو مثل معدوم النظير فى تاريخ البشرية كلها . وفى هذا يقول الله تعالى : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

٤ — وهناك بعد صلة الأخوة الدينية التى تؤلف بين المسلمين جميعاً ، صلة أقوى أعم منها ، وهى صلة « الانسانية » التى قرر لها الرسول وجلا لها ، والتى تجمع بين المسلمين وغيرهم ، وذلك لأنهم جميعاً أبناء أب واحد هو سيدنا آدم عليه السلام ، وفى هذا يفتتح الله تعالى سورة النساء بقوله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » الآية .

ولهذا كتب الرسول وقد استقر بدار هجرته كتابا وادع فيه اليهود ، وأباح لهم حرية العقيدة والاقامة ؛ وضمن لهم فيه حرمة المال والنفس والجوار ، ودعاهم إلى التعاون فى الخير ، والتكافل فى دفع الظلم والشر ؛ ولكن اليهود قوم لا يعرفون حرمة لعهد أو ميثاق ! .

* * *

تلك بعض المبادىء الانسانية الرائعة النبيلة التى نأخذها من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنها نعلم حرصه على إقامة المجتمع العربى الاسلامى على أصول راسخة من الأخوة والمحبة والتعاون ، ومن المساواة والعدل بين الجميع ، والتضحية فى سبيل الدين والوطن ، إلى غير ذلك من المبادىء والأصول الانسانية التى يسعد بها الافراد والجماعات والامم على اختلافها ، والتى طبقها المسلمون فعلا وما يزالون حريصين على العمل بها فى كل زمان ومكان .